B. الذروة المتزامنة لامبراطوريتي بابل وطيبة حوالي العام ٢٠٠٠

I. الأمبراطورية البابلية في ظل حكم حمورابي ٢٠٠٣ ـ ١٩٦١

١ ـ الذروة المتزامنة لبابل وطيبة

إن المائة سنة التي سبقت تولي حمورابي الملك هي غامضة في بلاد ما بين النهرين بنسبة ما هي غامضة في مصر. ففي كل من هذه وتلك تتولى أسرة ملكية جديدة الحكم: السلالة الحادية عشرة المصرية وسلالة بابل الأولى. وثمة عاصمتان جديدتان هما مركزا السلطة في هاتين الدولتين الحديثتي العهد والنشطتين: طيبة وبابل.

وكان ينبغي الانتظار حتى العام ٢٠٠٠ لرؤية هذين البلدين يتألقان معاً وفي وقت واحد في ذروة مصيرهما الرائع وذروة حضارتيهما في آن معاً. فحوالي ذلك العصر كانت أمبراطوريتان إقليميتان قويتان وحضارتان متألقتان ومتجدّدتان، قد تم الاعداد لهما في كل من وادي النيل ووادي الفرات، ظهرتا على مسرح العالم الشرقي. لقد تمكنت بابل بفضل حمورابي من محو أي أثر لأغاده وأور عاصمتي ساميي وسومريي بلاد ما بين النهرين القديمة. وأما طيبة فعرفت كيف تحل مع السلالة المصرية الثانية عشرة، ولعصور مقبلة عديدة، محل ممفيس القديمة والمجيدة.

إن أوج حضارة كل من بابل وطيبة سيكون متزامناً تزامن وصول أمبراطورية كل منهما والسلالة الحاكمة الجديدة بهما إلى السلطة. ذلك أنه وفي حين كان فراعنة السلالة الحادية عشرة المصرية وملوك بابل الأولون ملوكاً مجدّدين وبنّائين مهّدوا الطريق أمام خلفائهم، كان فراعنة السلالة الثانية عشرة المصرية وملك بلاد ما بين النهرين حمورابي المعاصر لهم، يرفعون كلاً من أمبراطورية طيبة الوسطى والأمبراطورية البابلية الأولى إلى أوج عظمتها.

بعد حمورابي، كما بعد السلالة المصرية الثانية عشرة، إنتهى عصر العظمة في بلدي الفرات والنيل. وابتداء من العام ٢٠٠٠ سوف تبدأ الغزوات الشمالية بالتدفق نحو الجنوب. إن الشرق الأدنى الآسيوي، وقد طبع بالطابع الارياني (آسيا الصغرى، ارمينيا، إيران)، سوف يدخل بعد العام ١٨٠٠ مسرح التاريخ.

٢ ـ حمورابي وأمبراطوريته

أ ـ الملك حمورابي (٢٠٠٣ ـ ١٩٦١)

نجح حمورابي بالسيف والنار وبإتقاد نبوغه أن يحقّق الحلم الذي طالما راود مخيلات ملوك بلاد ما بين النهرين، في إنشاء دولة موحدة جديدة تضم تحت سلطتها المركزية كل مناطق بلاد ما بين النهرين. إن أمبراطورية بلاد ما بين النهرين الجديدة هذه والتي ستعرف الزوال بسرعة سابقاتها، ستمتد مثلها من عيلام والبحر الأدنى (الخليج العربي) حتى أمورو (سورية العليا) والبحر الأعلى (البحر المتوسط). وتعرف تلك الأمبراطورية عامة بالأمبراطورية البابلية الأولى تمييزاً لها عن لاحقتها البعيدة: الأمبراطورية البابلية الجديدة أو الكلدانية والتي ستؤسّس حوالي العام ٦٠٠ق.م. على يد نبوخذ نصّر والكلدان، وهم سليلة موجة سامية صحراوية عتيدة هي الموجة الرابعة أي موجة الآراميين والعبرانيين.

«لقد اتخذ حمورابي لنفسه الألقاب القديمة: ملك سومر وأكاد، ملك الأقطار الأربعة، ملك الكون... وأضاف إليها لقباً جديداً هو: أبو أمورو. تلك كانت النتيجة التي أدّت إليها الحركة التي بدأها المشايخ الأموريون والدخول التدريجي للقبائل السامية الغربية إلى بلاد ما بين النهرين السفلى. وكان حمورابي يذكر مراراً عديدة بهذه الأصول فيقول: إن الإله داغان (إله كنعاني، فينيقي، أموري) هو خالقي. ومنذ ذلك الحين انتقل مركز الحضارة من سومر إلى أكاد: أضحت بابل العاصمة النهائية لبلاد ما بين النهرين السفلى. إن أكاد التي تدعمها أمورو قد حلت محل سومر القديمة بعدما ابتلعتها إلى الأبد. وإن اللغة الرسمية تومىء إلى هذه الثورة: إن النصوص الملكية بعد الآن (مثل الشرعة) ستدون بالأكادية. وأما السومرية فلن تستمر إلاّ كلغة مقدسة، كاللاتينية تقريباً في القرون الوسطى. غير أن الحضارة السومرية ستظل في أساس النظام الجديد حيث امتزجت إسهامات مختلف شعوب الأمبراطورية»[1].

1 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 390.

وخلال فترة حكمه التي دامت ثلاثاً وأربعين سنة مارس حمورابي سلطة مذهلة في الميادين السياسية والادارية والعسكرية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية. وإن مراسلاته الادارية مع وزرائه ومعاونيه في المقاطعات ومجموعة قوانينه أو شرعته التي أصدرها، تعطينا صورة واضحة اليوم وبعد أربعة آلاف سنة عن شخصيته الفكرية وعن طبع هذا الملك العظيم وأعماله.

«فرسائل حمورابي، وللمرة الأولى في التاريخ، تقدم إلينا صورة واقعية عن الأعمال اليومية وحياة هذا الملك الشرقي العظيم واهتماماته. فهي تمثله لنا جالساً في مكتبه في بابل يملي على أحد أمناء سرّه وبعبارات مختصرة وواضحة رسائل قصيرة فيها أوامره إلى الحكّام المحليين... وكل هذا نابض بالحياة وقريب منّا إلى درجة يخيل إلينا أننا نرى الكاتب ينتضي قلماً من قصب من بيت جلدي صغير يتدلى من زناره ويغطي برموز سريعة صفيحة فخار صغيرة عما يمليه عليه ملكه... مثلاً إن الفيضان سدّ مجرى الفرات بين أور ولارسام وعطّل الملاحة، وإن المراكب المتوقفة في صف طويل راحت تطلب المرور. الملك يعطي الأمر لحاكم لارسام بأن ينظف المجرى بأسرع ما يمكن لاعادة الملاحة إلى طبيعتها.

وكان حمورابي يهتم كثيراً بقطعان أغنامه الهائلة العدد: فالغريزة البدوية القديمة المتأصلة في عرقه لم تكن بعد قد خفتت تماماً. فهو يدعو موظفيه للمجيء إلى بابل للاحتفال بعيد جزّ صوف الخراف في الربيع. ويبدو أن هذا كان عيداً هاماً في بلاده. وإن جباة الضرائب المتقاعسين كانوا ينبهون إلى واجبهم ويدعون إلى الانضباط من غير تلكؤ. وفي مكان آخر فهو يأمر بمعاقبة موظف بشدّة لأنه اتهم بالاختلاس... وفي أكثر من مرّة يطلب من حاكم لارسام بشدّة التقيّد بالنظام ويدعوه إلى توخي سرعة أكبر في إنجاز الأوامر المسلمة إليه. وهناك أكثر من طالب حاجة خذله القضاة المحليون، كان يؤتى به أمام الملك الذي يثق به كل الثقة حتى إذا ما كان التماسه عادلاً حكم لصالحه فوراً... إن اهتمام الملك بأمور الدين كان يظهر هنا كمثل شعوره بالعدالة. وإن العديد من رسائله خصّها بإدارة المعبد الذي كان يوليه كل اهتمامه»[2].

أليس هذا عمل خلفاء المدينة المنورة الأول أو نشاط ابن سعود ملك المملكة العربية الحديثة ؟

2 J. H. Breasted, *La conquête de la civilisation*, p. 136, 137, 138.

وفي سبيل تقوية سيطرته وسلطة سلالته وعشيرته، شجع حمورابي وهو سليل سامي أمورو هجرة واسعة لعناصر أمورية وسامية الى بلاد ما بين النهرين وبخاصة إلى بلاد سومر. وإن الروم السلاجقة الذين سوف يستقرّون في أنطاكية والخلفاء الأمويين الذين سوف يقيمون في دمشق سيلجأون الى تدبير مماثل، مشجعين كلاً من الهجرتين الاغريقية والعربية لزيادة عدد قواتهم وعدد أنصارهم.

وأما في بلاد ما بين النهرين السفلى والمناطق القليلة الأمن فتم توزيع الحقول على مستوطنين ساميين من سكان بلاد ما بين النهرين الأصليين أو المهاجرين إليها، روّاد عملية «تسويم» سلمية لبلاد سومر.

وتظهر محفورات عائدة الى ذلك العصر ملك بابل في سحنته السامية القاسية ووجهه المستطيل وأنفه المعقوف ولحيته الطويلة وشعره القصير. «وأما على النصب الذي حفرت عليه الشرعة، فيبدو حمورابي ملتفًا بثوب املس ذي حاشية وهو يلبس حليًا ثقيلة من أساور وعقود ويعتمر عمامة.

أما العمامة فهي مجاراة لأزياء أهل الغرب حيث نشأت أسرته. وقد درجت منذ أيام الملك غوديا وفي عصر سلالة أور الثالثة شخصيات رفيعة المستوى على اعتمار العمامة، وغالباً من باب التشبّه أو التيمّن، كان الآلهة يبدلون تاجهم المقرّن بالعمامة»[3].

إن اعتمار العمامة وهي زي البلاد الصحراوية أو شبه الصحراوية فضلاً عن ارتداء الثوب الملس ذي الحاشية ما يزالان يلبسان حتى اليوم في العديد من المناطق الشرقية.

ب ـ أمبراطورية حمورابي، خامس أمبراطورية في بلاد ما بين النهرين

إن أمبراطورية حمورابي التي صيغت خلال حملات ومعارك دامت أكثر من ثلاثين عاماً كانت تضم حوالي العام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ «أربعة أقطار العالم» التي كانت تشكل في نظر ملوك النهرين عالم بلاد ما بين النهرين، وهي سومر أو ما بين النهرين السفلى وسوبارو أو ما بين النهرين العليا بما فيها بلاد أشور العتيدة وعيلام أو سوزيان العتيدة شرق دجلة، وأخيراً بلاد أمورو أو سورية الشمالية، على الأقل حتى قطنة القريبة من مدينة حمص الحالية.

3 Contenau, *L'Asie occidentale ancienne*, p. 228.

وقد تطلّب الأمر سنين طوالاً لتحويل هذه الأجزاء المتباينة إلى جسم متجانس نوعاً ما، ويخضع لسلطة عليا شديدة المركزية. وخلال عملية إعادة السلام والاستيعاب والتنسيق هذه أظهر حمورابي على أنه دبلوماسي بارع وإداري صالح تماماً بنسبة ما كان فاتحاً. فالنظام والتنظيم والأمن، التي نشرها والتي كانت مجهولة قبله ساعدته في هذا العمل الذي يفوق طبيعة البشر وجعلت منه أعظم الملوك الساميين في وادي النهرين إطلاقاً. وجعلت منه أعظم الملوك الساميين في وادي النهرين إطلاقاً.

«فتحت حكم حمورابي اضحت الأمبراطورية قوية ومستمرة لاسيما على ما يبدو أن الأمر استغرق سنوات عديدة لجمع عناصرها. وأما تكوينها فيختلف عن تكوين تلك الأمبراطوريات السريعة الزوال التي أشرنا حتى الآن إلى ظهورها المتتالي. فتنظيمها كان موضوع عنايات ثابتة على التوّ بعد فتح أي مقاطعة جديدة. وكل امتلاك لأرض جديدة كان يربط بمجموع متجانس وموحّد جيداً. إن الادارة الحكيمة لملوك بابل لا يعود الفضل إليها وحدها. فالظروف المادية كانت مؤاتية أكثر من ذي قبل لتكوين أمبراطورية حقيقية. إن شبكة القنوات كانت متطورة بما فيه الكفاية لتأمين طرق مواصلات مع المناطق البعيدة وكانت تمد ضاحية مدينة ما، حتى ضاحية المدينة المجاورة. فالانسان قد هزم الصحراء موقتاً... وتعطينا المدن الشرقية الحالية صورة عمّا كانت عليه مدن ما بين النهرين في تلك العصور. لكن ما نعجز عن تصوّره هو الخصوبة الفائقة لتلك الأراضي يومها والتي باتت اليوم مجدبة. وحدها بساتين النخيل المحيطة بالفرات تعطينا فكرة عمّا كانت عليه تلك البساتين التي كانت توغل مسافة أبعد بكثير نحو الداخل وتخترقها قنوات المياه الكبرى التي تشكل كلها شرايين مغذية»[4].

٣ ـ إصلاحات دينية. شرعة حمورابي ومؤسساته السياسية.

أ ـ إصلاحات دينية، أول محاولة توحيدية.

حتى عهد حمورابي كان لكل مدينة إلهها الخاص، الذي لم يكن يمنع وجود آلهة ثانوية أو عائلية. وهذا الاله المحلي كان سيد المدينة ويحكمها بواسطة الملك الذي لا يعدو أن يكون باتيزي أو مندوباً تابعاً له. وبدءاً من عهد حمورابي تغيّر تنظيم محفل آلهة بلاد ما بين النهرين ومفهوم الألوهة بحد ذاته. فقد حلّ محل مفهوم إله المدينة،

4 Contenau, *L'Asie occidentale ancienne*, p. 216 et 217.

مفهوم الاله الأسمى إله الأمبراطورية. ولم يكن بحاجة إلى أن يزيل الآلهة الاقليميين أو المحليين أو العائليين الآخرين ليصبح رئيسهم الأعلى التسلسلي. فالملك، الرئيس الأعلى للناس يقابله إله واحد هو الرئيس الأعلى للآلهة. ومن جهة أخرى فحمورابي الذي يعتبر نصف إله سوف يعمل بسلطة نابعة من ذاته أكثر مما يتصرف وكأنه مندوب للاله الأعلى.

وأما مردوك وهو إله غامض لضيعة بابل القديمة والذي صار بعد ارتقاء هذه المدينة إلهاً إقليميًا كبيراً فرقي إلى مرتبة رئيس أعلى لكل آلهة الأمبراطورية مغتصباً معظم سلطاتهم. ومن أجل تبرير عملية رفع درجة مردوك إلى المرتبة الأعلى من مراتب الألوهة تم تنظيم «قصيدة التكوين» وقصيدة «العادل المتألم» وهما قصيدتان مشهورتان. ففي الأولى ينقذ مردوك الآلهة من التنين تيامات (الفوضى) الذي كان يضمر إبادتهم، وأما في الثانية فإن إله بابل الأسمى يقوم بتعزية إنسان عادل يتألم ويعيد إليه صحته وثروته.

وقد تم بناء معبد كبير هو معبد إيزاجيل الشهير في بابل وتكريسه بإسم رئيس الآلهة الجديد. وهذا المعبد الرائع الذي يثابر على العناية به وإعادة بنائه طوال العصور كان لا يزال قائماً لحظة دخول الاسكندر إلى بابل العام ٣٣١.

ب ـ شرعة حمورابي

كان حمورابي إلى جانب كونه منظماً وفاتحاً، ملكاً مشترعاً للقوانين. وأما عمله الأكثر خلوداً فهو شرعته الشهيرة التي نقشت على نصب من البازالت، اكتشفت العام ١٩٠١ في موقع من سوز من قبل بعثة مورغان. ولم يكن هذا في الواقع يمثل كل قوانين ذلك العصر بل مجرد مجموعة قوانين وقرارات مدرجة في ٢٨٢ مقطعاً أو مادة، وتنظيم مختلف مواضيع الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إن هذه الشرعة تشكل وثيقة هامة لدراسة قانون بلاد ما بين النهرين ليس في هذا العصر وحسب بل طوال الألف الثالث بأكمله، سيما وأن اكتشافات أخرى تتناول نصوصاً قانونية سابقة وبخاصة مقتطفات من القوانين السومرية تثبت بما لا يقبل الشك أن شرعة حمورابي استوحت منها حتماً. لقد رأينا أنه وقبل حمورابي كانت ثمة مجموعات قوانين سومرية وسامية مكتوبة، وعلى الأخص سومرية وبعض نصوصها ينطبق تقريباً على نصوص شرعة حمورابي البابلية. ومن المفيد التذكير هنا أن الملك

السومري شولجي وحوالي العام ٢٣٠٠، نشر مجموعة قوانين كانت تطبق على مجمل أمبراطورية أور الثالثة.

وأما فضل شرعة ملك بابل فيكمن في أن شرعته كانت أكثر منهجية. إن هذه المجموعة ليست بالتأكيد كاملة غير أن مراسلات الأمبراطور حمورابي والذي كانت تعرض عليه دعاوى باستمرار من جانب وزرائه، وحكامه تعوض عن هذا النقص. وبمناقشته لمختلف الحالات الخاصة كان الملك يقوم بتفسير نية المشترع وخلق اجتهادات في القضاء تكمل نصوص شرعته. وهكذا فإن شرعة حمورابي هي مجموعة أعراف محلية وقوانين وعادات سابقة أعطاها الفكر النظامي الذي يتحلى به المشترع، شكلاً أكثر منهجية. ومن جهة أخرى فإن روح النظام والسلطة اللذين يميزان الفاتح السامي تجعل العقاب أقسى. ففي حين كانت القوانين السومرية تتمتع بحلم أكبر، فإن شريعة الدحل «العين بالعين والسن بالسن» التي تعود أصولها إلى عهود ما قبل التاريخ ظل معمولاً بها، وسيستمر العمل بها في التوراة والقرآن.

«ويمكننا في الحقيقة أن نصنّف في أبواب عدة القوانين التي تشغل ٣٦٠٠ سطر تتضمنها الشرعة. وهي تعالج على التوالي أعمال الأذى والحيل ضد الشهود أو القضاة المطعون بنزاهتهم والسرقة وبعض واجبات الموظفين والزراعة وإقراض المال بالفائدة وشرطة الخانات والديون والايداعات أو الأمانات والقوانين المنظمة للأسرة والضربات والجروح وممارسة المهن الحرّة كالطب والهندسة وقيادة المراكب ومختلف الأملاك كالحيوانات والعبيد والاملاك العقارية. وإن مثل هذا التعداد يدهشنا بسبب كيفيته مما يدل على أن هذه الشرعة ليست محددة أو حصرية ولكنها تنظم المواد الموجودة فيها. وأما بالنسبة إلى الشؤون الأخرى فإن هناك اجتهادات قضائية تعالجها»[5].

ج ـ المؤسسات السياسية. الملك

إن شرعة حمورابي كما التوراة والقرآن بعدها هي شرعة الدولة وهي تنطبق على الملك كما على رعاياه. وتماماً كما أمر حمورابي بتوحيد اللغة والشرائع فإنه أرسى في الدين مذهباً للدولة لجمع الشعوب المتباينة في أمبراطوريته. وسبق أن رأينا أن مردوك الاله المحلي لبابل قد رقي إلى مرتبة الرئيس الأعلى لآلهة الأمبراطورية وأن

5 Contenau, *L'Asie occidentale ancienne*, p. 229.

الملك، الرئيس الأعلى للبشر هو ممثله على الأرض. لقد كانت تلك أول محاولة منظمة للمذهب الثيوقراطي (الحكم الالهي) العزيز جداً على الطبع الشرقي والذي سينتقل بعدها إلى الغرب تحت الاسم الحديث القيصرية البابوية. يشكل هذا التوحيد الالهي الأول في التاريخ أو الأصح هذا التنظيم التسلسلي للآلهة صورة عن المجموعة الاجتماعية وهو كما قلنا نتاج النزعة التوسعية السياسية. فمثل هذه المحاولة ستعمم في مصر بعد ذلك بستة قرون على يد الفرعون أخناتون، سيد سورية حتى نهر الفرات.

«ما أن سلمت الآلهة السلطة إلى مردوك حتى نادى هذا الأخير حمورابي باسمه في بابل معلناً إياه ابنه ووريثه. لقد صيغت نظرية الملكية كحق إلهي في بابل كما كان يعبر عنها لقرون خلت في ممفيس وطيبة: . . . إن الملك هو جزء من العرق الالهي بحسب القانون المنظم للعالم. فعبادة الملك تعزز تماسك الأمبراطورية إذ تجمع فيه القوى الروحية والالهية. هكذا نرى حمورابي يرفع الفكرة السياسية التي تصورها سرجون إله أغاده وشولجي وغوديا إلى أعلى درجات قوتها. . . كإله، يتمثل الملك أكثر فأكثر بشخص شمش الشمس أب العدالة. فشرعة حمورابي تصفه بأنه شمس بابل وملك القانون. . . كما أن إبن حمورابي وخليفته سوف يحمل إسم «الشمس إلهنا» سمسويلونا (سمسو هي المرادف العربي لكلمة شمش الأكادية)»[٦].

ومثل هذه العقيدة التي تجعل من الملك كائناً إلهيًا ستظل سارية التطبيق حتى انتصار المسيحية. وفضلاً عن البلدان الشرقية حيث كان هذا المفهوم سائداً للغاية، ففي كل مرة كان فيها الطمع الأمبراطوري التوسعي يسود اليونان وروما كان الأباطرة يدعون بنوتهم الالهية لفرض أنفسهم على الشعوب المتنافرة الأعراق والخاضعة لهم. ونحن نذكر ادعاءات الاسكندر الكبير على أنه من أصل إلهي. فالأباطرة الرومان كانت لهم عبادتهم وتماثيلهم في كل معابد الأمبراطورية. وبعد انتصار المسيحية والاسلام لم يعد الملك إلهاً أو ابناً للاله بل ممثل الله الوحيد.

٤ ـ التنظيم الاجتماعي

لقد انقضى طور البداوة حوالي العام ٢٠٠٠ فالدولة البابلية غدت مدينية والسكان باتوا موزعين في مدن. وأما البدو وحيثما كانوا باقين فقد كانوا في إطار

6 Moret, *Histoire de l'Orient,* I, p. 407 et 408.

علاقاتهم بالحضر خاضعين لقانون المدن. كل رجل حر له الحق بالملكية والحرية الشخصية. «وهذه الحرية يكرسها حمورابي ويعزز نظاماً ديموقراطياً وإنسانياً للغاية يتعارض مع النظام الأوتوقراطي الذي هو حق إلهي والذي حددناه في مصر. ومن هذه الصفات نستشف التقاليد الفردانية لدى بدو الصحراء هؤلاء الذين خرج منهم سكان بلاد ما بين النهرين واتصلوا بهم على الدوام في حين فُقِد هذا الاتصال باكراً مع المصريين في واحة النيل المغلقة أكثر.

إن الوضع الشخصي لأهالي بلاد ما بين النهرين تضمنه القوانين والشرعات والعقود وقد أعطى السومريون الأكاديون في هذا المجال نصوصاً قانونية وشرعات وأحكاماً قضائية أكثر من أي شعب آخر»[7].

وعلى أي حال، فمجتمع الحضر هذا، المتحدر من بدو مولعين بالحرية وفوضويين ليس مجتمع ديموقراطية ومساواة. بل على العكس إنه في الواقع والقانون بالغ التدرجية. فالحرية عند الساميين لا تستوجب بالضرورة المساواة. وسنرى أن سكان مصر هم الذين يركزون في الغالب على المساواة.

الناس في بلاد ما بين النهرين يقسمون طبقياً بحسب ولادتهم ودورهم الاجتماعي وثروتهم. فهناك الناس الأحرار والعامة والعبيد. الناس الأحرار هم نبلاء المجموعة ووجهاؤها، ويمكنهم أن يكونوا أعضاء من مجلس القدامى المحلي (الشيوخ) وهو مجلس بلدي يرئسه العمدة. وهذا المجلس يتولى إدارة المالية والشرطة والعدالة المحلية وهو مسؤول عن الغرامات والضرائب المحلية.

إن الانسان الحر يمكن استعباده بسبب الدين وإنما ظرفياً. أما العبيد فهم الذين ولدوا على هذه الحال أو اشتروا من الأسواق أو أسروا في الحرب. والعبد يمكنه أن يشتري حريته لقاء مبلغ من المال.

وبين الانسان الحر والعبد تكونت طبقة وسيطة هي طبقة الناس الذين لا يملكون الكثير أو «الموشكينو» في الأكادية، والمساكين في العربية. وهؤلاء هم العامة وتقدر مكانتهم الاجتماعية بناء على تعريفة التعويضات أو الغرامات.

إن الزواج يتطلب عقداً. الزوجة تتمتع بكفاءة قانونية إذ بوسعها التقدم بدعوى قانونية وإدارة مهرها. غير أن الزوج يمكنه إيفاء دينه بإعطاء زوجته وأولاده

7 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 392.

لدائنه الذي يكتري خدماتهم لمدة أقصاها ثلاث سنوات. وأما الطلاق فرائج. إذا كانت الزوجة مهملة أو مهانة من قبل زوجها، فبوسعها الطلب إلى القاضي أن يمنحها اذناً «للخروج من البيت» ويمكن الزوج أن يطلق زوجته إذا كانت عاقراً. الرجل الحر لا يمكنه الزواج إلاّ من زوجة شرعية واحدة. غير أنه يسمح له إحلال سرية في منزله من غير أن تكون لها مرتبة الزوجة. ويظهر لنا سفر التكوين كيف أن ساره زوجة إبراهيم أعطته سرية مصرية (هاجر).

إن انتقال الأملاك بالوصية لم يكن معروفاً في الشرق القديم، حيث لم يكن يصار إلا إلى هبات بين الأحياء. وبعد وفاة الأهل فالتركة العائلية تنتقل بقسمتها بين الأولاد. وأما المباني فلا توزع إلا على الذكور. ويعود بت الحرمان من الارث بناء على حكم القاضي الملكي. إن تعادل الحصص بين الأولاد الذكور حق مكرس. غير أنه بوسع الأب أن يخص أحد أولاده بهدية كحقل أو بستان أو بيت.

أما العقوبات والغرامات فتراوح تبعاً لأوضاع المتضرر والمجرم الاجتماعية. فشريعة الذحل أو العين بالعين والسن بالسن قائمة في تطبيق العقوبات عندما يتعلق الأمر بالناس الأحرار وأما بالنسبة إلى الآخرين فالغرامة تكفي للتعويض عن الضرر، وتعريفة الجزاء على درجات.

الطبيب والجراح والمهندس المعماري والبنّاء ومؤجر المراكب كل منهم مسؤول عن صحة وحياة من دفعوا ثمن خدماتهم. «تعريفة الملك» تنظم أجور الفلاح وراعي الأبقار والأغنام وصانع الآجر ومقصب الأحجار والنجار والبناء إلخ...

القصر الملكي ومعبد المدينة هما مركز الدولة البابلية. وإلى جانب صلاحيات العمدة والأعيان هناك سلطة حاكم المدينة، ثم قضاة بابل وهم المحكمة العليا التي تتقبل الدعاوى الاستئنافية. ويمكن في النهاية رفع القضية إلى الملك. فالملك له حق الرقابة على كل السلطات القضائية. القصر الملكي يستثمر موارده كأي مصرف ويلعب دوراً أساسياً في النشاط الاقتصادي.

وأما المعبد فهو أغنى من القصر الملكي ويمتلك الصروح والأراضي والمحاصيل الزراعية والقطعان ويستفيد من المهن والتجارة وتتعزز أمواله أيضاً بما يعود إليه من ضرائب العشر والتقديمات. وهناك مجموعة لا بأس بها من الكهان والعرافين والمنجمين إلخ... يقومون بالفرائض الالهية ويديرون أملاك الكهان. الشرعة تلزم المعبد في بعض الحالات بتقديم هبات سخية للمنفعة الاجتماعية: كإعطاء سلفات

بلا فائدة إلى الفقراء والمرضى والمقاتلين من أسرى الحرب.

وبعد ألف سنة على تدوينها ظلت شرعة حمورابي سارية التطبيق في بابل ونينوى وبقيت شرعة المجتمع الأشوري-البابلي. «إن النور الذي نشره على مؤسسات بلاد ما بين النهرين أنار الطريق أمام مجتمعات أخرى في الشرق القديم» (موريه).

٥ ـ الحياة الاقتصادية والفكرية والفنية

أ ـ الحياة الاقتصادية

عرفت الأمبراطورية القائمة على أرض بالغة الخصب بطبيعتها والتي تخترقها الأنهار والقنوات الصالحة للملاحة، ناهيك بوقوعها على طريق كبرى عالمية، درجة ازدهار لم تشهده من قبل وذلك بفضل تمتعها بالنظام والعدالة والأمن. فالتجارة الداخلية ازدادت والصناعة والزراعة تطورتا. ونتيجة لذلك امتدت التجارة الخارجية في كل الاتجاهات. وكان بوسع القوافل أن تسلك بلا خوف الطرق والصحارى والجبال والسهول والأنهار والبحار لبلوغ إيران وآسيا الصغرى وسورية والمرافىء اللبنانية كافة. وبفضل هذه الحركة التجارية الكثيفة والتبادلات الناتجة عنها والعلاقات الدولية التي سببتها، تمكنت الكتابة المسمارية من الانتشار عبر آسيا الغربية وصارت اللغة البابلية فيما بعد، وظلت طوال قرون عديدة لغة التجارة والدبلوماسيه في كل مناطق العالم الشرقي.

«كان التجار البابليون يؤلفون طبقة قوية وتتمتع بامتيازات... لكن المعابد الغنية بفضل التبرعات والمؤسسات كانت المركز الحقيقي للأعمال. ونظراً لامتداد سلطتها على أملاك واسعة، كانت تلك المعابد تمارس التجارة وتقرض الأموال على أساس رهنيات. وكان هناك دائماً مستقرضون برغم ارتفاع قيمة الفائدة التي كانت تصل إلى ٢٠ بالمئة سنوياً للنقد المعدني الذي يدفع على أقساط شهرية. وأما الذهب فلم يكن متداولاً إلا بندرة وكان يساوي ١٢ إلى ١٥ مرة قيمة الفضة. كانت حركة الأعمال والمصالح التجارية الكبرى سائدة إذن في بابل إلى حد أنها كانت تدمغ بسمتها الحياة الدينية نفسها... فالكهان كانوا يهتمون بكسب حظوة الأغنياء والنافذين أكثر مما يهتمون بمساعدة المعوزين والمحرومين. ولئن كانت الشعائر تحتوي على بضع عبارات تحمل معنى خلقيا إلا أن المنافع المنتظرة من الدين كانت تقتضي في الغالب عدم التعرض لاغضاب الآلهة التي

كانوا ينتظرون منها بخاصة أرباحاً جوهرية»[8]. ألا يجعلنا هذا نعتقد بأننا في بعض مناطق العالم الشرقي المعاصر؟

ب ـ الحياة الفكرية والفنية

لقيت معرفة الكتابة تقديراً كبيراً من قبل البابليين. وكان تعليمها في المعابد يتم على يد الكهنة والموظفين والخاصة من الجنسين. ويؤكد بريستد «أنه عثر في خرائب مدرسة من عهد حمورابي على فروض تلامذة من صبيان وبنات» وسوف نرى أنه وفي بيبلوس في فينيقيا حوالي العام ٢٢٠٠، كان التعليم في المدارس منذ ذلك العصر يتم بلغات عدة.

«نادرة هي الأعمال الفنية التي عثر عليها من عهد حمورابي. فالقوة تتحد مع الرقة في الوجوه المحفورة عند قمة صخرة الديوريت (البركانية المتبلرة) التي نقشت عليها الوصايا (الشرعة)... وأما القسمات الشخصية فضعيفة بحيث يصعب تمييز شخص من الآخر، فكلهم متشابهون. حتى صناعة الأختام وهي فن برع فيه البابليون انحطت بشكل ملموس منذ عصر سرجون (حوالي ٢٧٠٠). وأما مملكة حمورابي وبعدما وصلت إلى أوج ازدهارها التجاري بدأت مرحلة انحطاط واضح في مجال الفن.

فهل كان هذا الانحطاط إنذاراً؟»[9].

لقد كان حتماً كذلك. فهذه الأمبراطورية المتينة والعظيمة والتي بدت قوتها وتنظيمها وكأنها تتحديان العصور وتعدان بأجمل مصير وأمدّه عمراً، كانت في الحقيقة على وشك أن تغوص في الكوارث. ولأنها سريعة الزوال على غرار الأمبراطوريات التي سبقتها وتلك التي سوف تخلفها في هذه المنطقة المنعم عليها، كان لا بد من أن تشهد عما قريب مصيرها التاعس والحزين. فهناك قدر تاريخي شبه ثابت، وقد حاولنا تحليل أسبابه العامة، كان ينقض بلا هوادة ويحطم كل المنشآت الأمبراطورية في هذا البلد. ولم يكن بوسع الأمبراطورية البابلية العظيمة أن تنجو من هذا المصير المحتوم.

«فالأمبراطورية التي نظمها حمورابي بكثير من العناية لم تستمر من بعده بفعل

8 Breasted, *La conquête de la civilisation*, p. 140, 141.
9 Breasted, *op. cit.*, p. 142.

قوة التدمير تلك، المسلطة باستمرار على النشاط الخلاق الذي تميزت به شعوب بلاد ما بين النهرين... في ما مضى وخلال الألف الثالث استطاع البدو أو المهاجرون ثلاث مرات أن يغيروا مجرى التاريخ بإيقاف محاولات إنشاء أمبراطورية في بلاد ما بين النهرين»[10].

ويا للفارق الصارخ بين هذا وبين الوضع الذي كان في وادي النيل، تلك الواحة الأخرى المعزولة والتي تحميها صحار شبه فارغة. ففي هذا البلد الذي أهله مزارعون وفلاحون مسالمون ومستقرون، سادت الروح الحضرية على الدوام. ومنذ العام ٣٣٠٠ تاريخ أول عملية توحيد سياسية وأرضية فقد تطور سكان بلاد النيل بنظام لافت.

ويمكننا القول أنه إذا كانت الوحدة والتجانس المصريان هما القاعدة فالتجزئة هي الشواذ. على أن العكس تماماً هو الصحيح في بلاد ما بين النهرين. وحتى في عهود الفوضى والاقطاعية والتفتت السياسي فالوحدة النفسية للأمة المصرية استمرت دائماً. وسيبقى الأمر كذلك حتى الزمن المعاصر.

إن البدو والجبليين الذين غزوا باستمرار بلاد ما بين النهرين، تسببوا دائماً بمزائج لدى السكان وذلك بدمغهم بسمات غير متجانسة. كما أنهم استوردوا معهم وحفظوا غرائزهم المحبة للحرب والغزو والروح العسكرية والمطامع السياسية. ومن هنا نشأ، كما قلنا، ذلك الطبع الحربي لدول ما بين النهرين، التي كانت تطمح باستمرار لبناء أمبراطوريات مهيمنة والتي لم تعد مصر ابتداء من قيام الأمبراطورية الأشورية إلا محافظةمنها. ومن هنا أيضاً نشأت الواقعية والنشاط وغالباً الفظاظة التي تميز سكان بلاد ما بين النهرين.

10 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 410.

II. أمبراطورية طيبة أو الأمبراطورية المصرية الوسطى، تحت حكم السلالة الثانية عشرة |٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨|

١ ـ السلالة المصرية الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨)

رأينا أن فراعنة السلالة الحادية عشرة كمعاصريهم ملوك السلالة البابلية الأولى كانوا ملوكاً مجددين وانتقاليين، إلا أن السلالة الثانية عشرة المصرية المعاصرة لحمورابي ستحمل الأمبراطورية الوسطى في طيبة وحضارة مصريي بلاد النيل إلى الأوج.

فكل من هاتين السلالتين تمثل، ومن كل الوجوه، المرحلة التقليدية لحضارتها. إنه بخاصة زمن سياسة اجتماعية تحت الحافز الساهر لملوك مشترعين؛ إنه أيضاً عصر الازدهار الفكري الأكبر»[11].

٢ ـ سياسة السلالة الثانية عشرة الداخلية

أ ـ أمنمهت الأول، مؤسس السلالة الثانية عشرة

قد يكون أمنمهت الأول (٢٠٠٠ ـ ١٩٨١) مؤسس السلالة الثانية عشرة الشخص الحامل هذا الاسم والذي مارس مهام القائد العام للجيش ورئيس الوزراء في عهد الفرعون منتوهتب الخامس الفرعون قبل الأخير من فراعنة السلالة الحادية عشرة. وقد مشى على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل فأخضع بدو الصحراء

11 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 436.

الشرقية بين النيل والبحر الأحمر وأعاد السلام إلى منطقة الحمامات والطرق التجارية بين مصر وبلاد البنط.

قد يكون ذلك القائد ـ الوزير، الذي يتمتع بنفوذ وشعبية كبيرين سواء في الجيش أو في أوساط الشعب، والذي اشتهر بانتصاراته العسكرية والطموح والكفوء، وكالعديد من أمثاله العتيدين، قد خلع الفرعون غير الكفوء منتوهتب السادس (حوالي العام ٢٠٠٠) عن العرش واحتل مكانه. ولما صار ملكاً، كرس أمنمهت الأول نفسه لاعادة تنظيم الدولة. فتم ضبط الجهاز الاداري والسياسي من كل جوانبهما. ثم تحصين حدود البلاد فضلاً عن تجميل مدينة طيبة التي أضحت العاصمة. غير أنه ولمراقبة الدلتا مراقبة أفضل عن الحدود الشرقية، اتخذ مقراً لبلاطه في الفيوم على منتصف الطريق بين طيبة والبحر، جاعلاً منها نوعاً من العاصمة الثانية. وتم تشكيل بلاط حول الملك عين فيه فضلاً عن الأسرة المالكة النبلاء من المحافظات والذين ربما ساعدوه في انقلابه على الدولة. إن نبلاء المحافظات هؤلاء، كانوا قد صاروا وقبل تولي أمنمهت الأول الحكم، نواب ملوك حقيقيين بالوراثة. وقد تركهم الفرعون الجديد يتمتعون بامتيازاتهم محاولاً تقليصها تدريجاً فيما بعد. وأما الأمراء المتحررون فقد أعيدوا إلى الطاعة. وتم تحديد حدود ولاياتهم لتلافي المنافسات بين أمراء الولايات المجاورين. إن نواب الملوك هؤلاء هم أسياد حقيقيون داخل ولاياتهم. فهم يجبون الضرائب ويسلمون قسماً منها إلى الملك ولديهم ميليشيات يقاتلون بها في حالة الحرب لصالح الفرعون.

وعلى غرار العديد من المفضلين على بلادهم وقع أمنمهت الأول وفي نهاية حياته ضحية مؤامرة منظمة من بطانته داخل الحريم الملكي، وقد اغتيل على أثرها العام ١٩٨١. وعلى أثر هذه المؤامرة التي انغمس فيها أمير ملكي هو سينوهت تملك هذا الأخير الخوف ففرّ هارباً إلى سورية الشمالية.

ب ـ الاله آمون يحل محل راع كإله سلالي

قد يكون ملوك السلالة الحادية عشرة قد اختاروا إلهاً شفيعاً هو منتو الاله المحلي في طيبة. ومن هنا جاء الاسم الالهي الذي كانوا السباقين إلى اعتماده كاسم شخصي وملكي: منتوهتب،ومعناه «منتو راض».

غير أنه وفي ظل هذه السلالة فإن عبادة آمون إله هيرموبوليس، وهي مدينة تقع بين أسيوط وهيراكليوبوليس، استقرت في طيبة وانضمت إلى محفل آلهتها. تبدو

ترقية الاله آمون هذه وكأنها نتيجة لتحالف سياسي وديني ساعد على حمل كهان هيرموبوليس وشعبها وهم من عبدة آمون على مناصرة الطيبيين ضد فراعنة هيراكليوبوليس. لكن الاله آمون لم يتصدر الآلهة في طيبة إلا في ظل حكم السلالة الثانية عشرة. فمؤسس هذه السلالة وضع نفسه رسمياً بتصرف هذا الاله السلالي الجديد الذي أصبح «ملك آلهة الجنوب والشمال» وهذا الفرعون اتخذ إسماً شخصياً وملكياً له الاسم الالهي: أمنمهت الذي يعني: آمون في الطليعة،أي في طليعة الآلهة الآخرين، إذن أساسي (موريه).

وأما خلفاء أمنمهت الأول فسوف يعتمد بعضهم اسمه المشتق من اسم آمون والبعض الآخر إسم الالهة أوزيريت أو سين. ومن هنا جاء إسم سينوسرت (سيزوستريس) الذي يعني «سين قوي».

وهكذا نرى أن لكل مرحلة كبيرة في التاريخ المصري إلهها السلالي الكبير والاساسي. فبالنسبة إلى دولتي مصر في عصور ما قبل التاريخ كان هناك الالهان الأسطوريان حورس وسيت. وأما الملكية الثينيسية فكان لها أوزيريس أول إله ملك لمصر الموحدة. وتحت حكم أمبراطورية ممفيس القديمة كان أولاً الاله السلالي حورس ابن أوزيريس ثم راع ـ الشمس إله هليوبوليس. وأخيراً ومع الأمبراطورية الوسطى الطيبية وبخاصة تحت حكم السلالة الثانية عشرة فقد رقي آمون إلى رتبة «ملك آلهة الجنوب والشمال».

ج ـ مدينتان عاصمتان: طيبة وإيتت تاوي

إحتفظ فراعنة السلالة الثانية عشرة مثلما احتفظ أسلافهم فراعنة السلالة الحادية عشرة بمقر إقامتهم في طيبة، التي لعبت دوراً حاسماً في بعث الوحدة السياسية والسلالية والأرضية للبلاد. كانت كل عناصر الحياة السياسية: المكاتب، المخازن، الاهراءات، الثكنات، المحاكم مجموعة حول معبد آمون. أما والي طيبة وعلى غرار والي ممفيس في الماضي فكان وزيراً لمصر كلها.

وهكذا تم التخلي نهائياً عن ممفيس عاصمة الأمبراطورية القديمة و«ميزان دولتي مصر» والموقع الذي «تتعادل فيه الدولتان» وحلت محلها مدينة طيبة وهي مركز مصر العليا. «إن هذه العاصمة البعيدة مسافة ألف كيلومتر عن البحر المتوسط تقع في منأى عن الآسيويين والأجانب الذين أسهموا في خراب مدينة ممفيس»[١٢].

12 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 439.

إلا أن نقل المركز السياسي للدولة نحو الجنوب في بلاد تمتد كلها في خط طويل كان من شأنه الاخلال بتوازن حياة البلد النظامية. فالدلتا وهي الجزء الأساسي والأوسع من وادي النيل، لم تعد هكذا، تحت الاشراف المباشر للسلطة المركزية. أما الحدود الشرقية للدلتا فقد كانت جدّ بعيدة حتى يمكن مراقبتها بفعالية وحتى تكون محمية. إن كل هذه الأسباب، كما رأينا، هي التي دفعت الأمبراطورية القديمة إلى نقل عاصمتها حوالي العام ٢٩٠٠ من ثينيس الواقعة في الجنوب إلى ممفيس في الشمال.

لذا، فإن فراعنة السلالة الثانية عشرة عجلوا بمعالجة هذا الضير. إذ برغم أنهم تركوا لمدينة طيبة مركزها ودورها كعاصمة، غير أنهم ركزوا أكثر شمالاً مقر البلاط ومكان مدافنهم الملكية. «بلا ريب ليظلوا على صلة مع الدلتا ومصر الوسطى، مع ممفيس وهيراقليوبوليس على منتصف الطريق بين طيبة والبحر. وعند مدخل الفيوم، بنوا مقر إقامة بلاطهم: إيتت تاوي. وبقربها ترتفع حتى يومنا هذا الاهرامات الملكية المبنية بالآجر وذات الحجم الكبير»[١٣].

وأما إسم هذه العاصمة الثانية إيتت ـ تاوي حيث أقام الفراعنة مقر بلاطهم الملكي وأنشأوا قلعة فيعني: «منتصرة البلدين» أو «تلك التي تستولي على الأرضين»[١٤]

د ـ إرتقاء العامة إلى الحقوق الدينية ودخولهم وظائف الدولة

تحت حكم الأمبراطورية القديمة وكما كان الأمر فيما بعد في اليونان وروما، لم يكن يسمح بممارسة الوظائف العامة إلا للأشخاص الذين يحق لهم حضور الشعائر الدينية، أي الملك وأهل البلاط والحاشية وبعض أصحاب الامتيازات من النبلاء والكهان. فالحق الالهي للفراعنة وعدم المساواة بين الطبقات الاجتماعية: تلك هي ماهية النظام القديم وأساسه.

وعن طريق الثورة استطاع العامة أي الشعب كله أن يمنح نفسه هذه الحقوق، ولم يكن بوسع النظام الجديد إلا أن يثبتها له. هكذا وفي حوالي العام

13 Moret, *Histoire de l'orient*, I, p. 439.

(١٤) إن الخلفاء الفاطميين في العام ٩٧٢م. سوف يسمون المعسكر الذي أقاموه في المكان نفسه، بإسم مماثل، هو القاهرة اي المنتصرة، وقد اصبح مدينة مصر الكبيرة الحديثة.

٢٠٠٠ أصبح لكل مصري دونما تمييز في أصله الاجتماعي الحق بالمشاركة في الطقوس الدينية وأن يجلس في العالم الآخر بين الآلهة. وتحصيل حاصل أن يمارس السلطة التي يمحضه إياها الفرعون أي أن يشغل وظيفة عامة. وهذه الوظائف توزع وتمنح الترقيات فيها بحسب الكفاءات والثقافة والذكاء والاندفاع والادارة الحسنة لدى الأفراد.

هـ ـ كل مصري موظف

كل مصري هو مواطن وموظف، الفلاحون وكذلك الحرفيون والتجار. الأرقاء هم مزارعون أحرار يعملون لحساب الدولة. الأرض والمهن والوظائف لم تعد ملكاً للفرعون بل للدولة المصرية وهي التي تدير شؤونهم بواسطة أفراد تختارهم وتراقبهم.

الأرض والمهنة والوظيفة توكل إلى رب عائلة وتختلف أهميتها بحسب عدد الأشخاص الذين يعيلهم الموكل. الضرائب العينية التي يدفعها رب العائلة إلى خزانة الدولة تستخدم في دفع النفقات العمومية ولمساعدة البائسين في حال المجاعة أو الحرب. «كل واحد يخدم الدولة ولكن الدولة تغذي الجميع» (موريه).

يمكن أرباب العيال أن يوزعوا بين الأشخاص الذين هم على عهدتهم الأراضي والمهن التي ينتفعون منها. كما يمكنهم تقديم الهبات إلى زوجاتهم أو إلى أي من أولادهم أو المقايضة فيما بينهم شرط أن يقدموا تصريحاً بذلك إلى مكاتب المسح العقاري.

بالرغم من زوال استبداد المؤسسة الملكية المقدس وانهيار المصدر الالهي لسلطتها إلا أنها خرجت أكثر قوة من الثورة التي، بإزالتها إمتيازات الأرستقراطية، وجدت نفسها أمام مجتمع متساو عملياً وتسوده العدالة في أسفله. «إن الملوك الطيبيين الأولين... تمكنوا من إعادة البناء بعدما ضربوا صفحاً بكل المفاهيم القديمة. وتحت إدارتهم النشطة والعادلة تمكن الشعب المصري من أن يحقق شكلاً من العدالة: هي عدالة الخدمة في الدولة. الفلاح انتقل من حالة الرقيق إلى حالة المدير الحر بالوراثة، تحت مراقبة نظام قانوني. الأرستقراطية غدت هيئة موظفين. الشعب كله يشبه أسرة كبيرة، فرعون هو أبوها. في الخدمة العامة كل شخص سيان أكان نبيلاً أم عامياً، ابن «نسب» أم «بلا نسب»، غنياً أم فقيراً يتم تعيينه في مكان

ملائم لكفاءاته من الملك وحتى الفلاح. لقد خلفت إشتراكية الدولة الاستبدادية المقدسة»[15].

و ـ المساواة والعدالة الاجتماعية. مجتمع متساوٍ في طيبة وتراتبي في بابل.

إن المساواة والعدالة هما أساس النظام الاجتماعي الجديد المنبثق من الثورة. فالخلود الشخصي الذي أمنه الشعب لنفسه بعد الموت يجب أن يستحقه المرء بجدارة بسلوكه الحسن على الأرض. إن محكمة إلهية ستحاكم الناس بعد موتهم إذ تقبل أو ترفض اعطاءهم حق دخول الفردوس بحسب أعمالهم الحسنة أو السيئة. إن الشيء الجديد الكبير هو ولادة الضمير والحرية والمسؤولية الفردية وبالنتيجة ولادة فكرة الكرامة المعنوية للانسان. هناك جو من التحرر يغطي كل فروع النشاط البشري: الدين، السياسة، الأخلاق، الأدب، الفنون، إلخ...

«إن مثل هذا المفهوم للعدالة الاجتماعية في مصر مطلع الألف الثاني تتجلى لنا قيمته فيما لو قارناه بالنظام الذي كان سائداً في بلاد ما بين النهرين في تلك المرحلة نفسها وبحسب شرعة حمورابي. ففي هذه الشرعة فالقوانين والعقوبات غير متكافئة من حيث تحديدها، وهي تتدرج بحسب مرتبة الرعايا في المجتمع. كما أنها تختلف حسبما يكون الأمر متعلقاً: بعبد أو موشكينو أي مسكين، أو رجل ذي منزلة رفيعة أو موظف في المعبد أو القصر. والجرائم والجنح «تخمن» فيه تبعاً لنتائجها العملية، بالفضة أو الحبوب ولا «تقدر» على أساس مسّها بالأخلاق. في مصر، المشترع يتمسك بخاصة، بمبادىء ذات طابع اجتماعي وديني وبالقمع المتساوي من قبل الدولة حيال الاعتداء على القانون، الذي هو واحد بالنسبة إلى جميع المصريين. وأما في بلاد ما بين النهرين فالمشترع يأخذ بعين الاعتبار مصالح الفرد المادية بحسب مرتبته في المجتمع، والتعويض الذي يتوجب للضحية من الجاني يكون متغيراً ومتناسباً»[16].

ز ـ الحياة الاقتصادية

إن التنظيم في الداخل الذي اعتمده ملوك الأسرة الثانية عشرة فضلاً عن الاصلاحات الاجتماعية والادارة الحسنة انعكس بمجمله على مصر ازدهاراً إقتصادياً كبيراً. فالمعابد والقصور، والمشاريع والاهرامات الملكية وأبو الهول والأشغال ذات

15 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 448.
16 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 452.

المنفعة العامة والسرداب الشهير، وتجفيف الفيوم إلخ... كلها مشاريع تشهد على بعث سياسة إقتصادية واسعة النطاق. وهي السياسة نفسها التي دفعت الفراعنة إلى إعادة وصل علاقاتهم بالأسواق الخارجية وبالأخص مع البلدان التي كانت في الماضي حليفة أو صديقة أو تابعة لهم.

أما استثمار مناجم سيناء، الذي أهمل منذ الأمبراطورية القديمة، فقد استؤنف مما ولد هناك مستعمرة حقيقية. وأما سكان الكهوف والهربوشا الذين كانوا يسكنون في تلك الأمكنة، فقد طردوا منها والتجأوا إلى الصحراء المجاورة، مضاعفين بذلك عدد البدو واللصوص الذين وخلال مرات متكررة سيحاولون نهب المناجم والمعسكرات المصرية. الطريق نحو البنط باتت مفتوحة ومقالع حمامات تؤمن المواد اللازمة لمعابد طيبة. ويُعتقد أنه منذ ذلك العصر تم حفر قنال يربط بين الرافد الشرقي للنيل والبحر الأحمر.

٣ ـ سياسة السلالة الثانية عشرة الخارجية

وعلى صعيد السياسة الخارجية استأنفت السلالة الثانية عشرة المنهاج التقليدي للأنظمة السابقة: تحصين الحدود، استثمار النوبة، توسع إقتصادي وسلمي نحو بلاد كنعان وفينيقيا.

أ ـ تحصين بوابتي الجنوب والشرق.

إن انهيار الأمبراطورية القديمة والمرحلة الطويلة من الاضطرابات التي أعقبته عرّض عملية غزو النوبة والسودان وتنظيمها للخطر. وكانت شعوب حامية من أقصى الجنوب وحتى شعوب زنجية الأصل، وقد تحررت من النير الفرعوني، تتسلل من غير رقابة إلى وادي النيل. إن ملوك السلالة الثانية عشرة، وبعدما ألغوا الامتيازات الاقطاعية التي كان الامراء المتحررون قد منحوها لأنفسهم هنا وهناك، خاضوا معارك ظافرة ووصلوا حتى الشلال الثاني حيث أقاموا بوابة مصر منذ ذلك التاريخ وبنوا مدناً وقلاعاً في تلك الأماكن، شكلت حاجزاً قوياً ضد الغزوات الاتية من الجنوب. وأنشئت مراكز للعلاقات التجارية مع الشعوب المجاورة لتلك المناطق الاستوائية. وعلى لوحات صخرية حدودية نقشت أوامر ملكية تحرم على كل زنجي أن يجتاز تلك الحدود إلا لغرض التجارة المحلية.

لكن الثغرة أو نقطة الضعف في الدرع المصرية كانت من ناحية الشرق كما

نعلم. فمنذ وصوله إلى الحكم أغلق الفرعون أمنمهت الأول بوابة الشرق (برزخ السويس) ليمنع عودة أو تسلل الآسيويين إلى الدلتا وأنشأ خطاً متصلاً من التحصينات سمي «جدار الأمير» يمتد من وادي الطميلات حتى المتوسط وأقام حامية عسكرية دائمة فيه. كما أرسلت حملات تأديبية عديدة إلى مناجم سيناء. وأما طرق البنط، وقد أعيد السلام إليها، كما رأينا أيام الأسرة السابقة على يد القائد والوزير أمنمهت، فكانت لا تزال مفتوحة بفعل جهد هذا القائد أمنمهت نفسه الذي صار فرعوناً.

ب ـ بيبلوس وكنعان من جديد تحت النفوذ الفرعوني

بعد سيناء والنوبة وطريق البنط تلك التوابع للبيت المصري فإن مصر، وقد تقوت في الداخل، عادت لتنجذب فطرياً إلى منطقة بيبلوس التي تشكل بالنسبة إليها منطقة اقتصادية حيوية وذلك منذ ما قبل العام ٣٠٠٠.

إن انحطاط مصر والغزو الأجنبي والثورة منذ نهاية الأمبراطورية القديمة جعلت كلها، كما نعلم، نفوذ الفراعنة يتراجع في آسيا وطغى شعور من العداء لمصر في كنعان وحتى في بيبلوس تلا تأثيرهم المألوف. وأما في طيبة، فيروي حطام مزهريات حمراء، وهو اللون الذي يميز الصحراء، «إحتفال اللعنة» التي ترمز إلى تدمير أعداء المصريين وقد كتبت أسماؤهم على تلك الأواني المحطمة. إن هذه البقايا المنسوبة إلى السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة تحمل أسماء الأعداء من شعوب وقبائل كانت تهدد أمن مصر.

وفي سياق الأسماء المذكورة كما رأينا «نتميز إسم المنزيو وهم بدو سيناء، والامو وهم آسيويون من ١٥ منطقة مختلفة تبدو من بينها أسماء واضحة جدًّا مثل: آسيويو البلاد الخاوية (صحراء سورية) وآسيويو عسقلان أو كل آمو كيبيني (بيبلوس)»[17].

وحوالي العام ٢٠٠٠ قام أمنمهت الأول بتحصين برزخ السويس وبإنشاء «جدار الأمير الشهير والمعد لمقاومة الآسيويين ولصد «راكضي الرمال». وأما خلفاؤه فنجحوا في استعادة هيبة الفراعنة ونفوذهم نهائياً إلى بلاد كنعان إثر الحملات التأديبية التي قاموا بها. وتحت حكم الفرعون سنوسرت الأول حوالي العام ١٩٧٦ قام قائد مصري بهزيمة اليونتيو والمنتيو الآسيويين والهريوشا ودك قلاع الخيطا الحثيون، وكان يدخل إلى مرافئهم ويخرج منها كالذئب في البرية، من غير أن

17 Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 260.

يتصدى له أحد»[18]. ونلاحظ هنا ومنذ ذلك العصر إقامة الخيطا سكان آسيا الصغرى أو الحثيين العتيدين في فلسطين.

وحوالي العام ١٩٠٠ وفي أيام حكم الفرعون سنوسرت الثاني، وصل إلى الدلتا «في بني حسن ٣٧ من الأمو يقودهم شيخ البلاد الأجنبية (هيكا خاسيتيو) المعروف بإيبشا، بينهم محاربون ونساء وأطفال ويقودون أمامهم غزلاناً وحميراً ويحملون كهدية «مسحوق الكحل من صنع آمو البلاد الخاوية (الصحراء)»[19]. وحوالي تلك الفترة أو قبلها بقليل، كان شيخ سامي آخر هو ابراهيم، قد غادر أور في بلاد سومر متجهاً مع عشيرته وقطعانه نحو كنعان ومصر. وكان هذا الزعيم العبراني هو أيضاً يحمل معه هدايا لوكلاء فرعون.

وأما في بيبلوس فقد عادت الهيمنة المصرية، وبعد عصور من الكسوف، إلى التألق من جديد. وحكام بيبلوس الذين كان يختارهم الفراعنة في البدء من المصريين أصبحوا مجدداً في النصف الثاني من عصر السلالة الثانية عشرة من الأمراء المحليين التابعين ولاءً للفرعون. ففي أوغاريت (رأس شمرا) شمال اللاذقية عثر على بعض النصب المصرية التي تعود إلى هذه الفترة.

كما أعاد المصريون وصل علاقاتهم التجارية بشعوب هاونبو «كل الناس الذين في المؤخرة» (كريت وبحر إيجه). وقد عثر في كنوسوس على تمثال صغير من الديوريت يمثل رجلاً مصرياً ويعود إلى العام ١٨٠٠ق.م. كما استخرج خزف كريتي وإيجي من أهرامات سنوسرت الثاني وأمنمهت الثالث.

ج - سنوهت أمير مصري في سورية العليا

إن مغامرة أمير البلاط المصري سنوهت تعود كما سبق وقلنا إلى حوالي العام ١٩٨٠، وقد فرّ هذا الأمير من مصر متجهاً نحو آسيا لخشيته من أن يتهم في الضلوع بمؤامرة نظمت في القصر الملكي واغتيل على أثرها أمنمهت الأول. وبعدما اجتاز الحدود الشرقية وعبر بلاد كنعان ومنطقة بيبلوس صعد إلى سورية العليا حيث أقام لدى «شيخ ريزينو العليا» في تلك المنطقة من سورية القديمة بين العاصي والفرات.

وتحت حكم الفرعون سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٥٠) شنت حملة يقودها

18 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 458.
19 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 463.

الملك بنفسه ضد شعب الآمو والمنتيو الآسيويين وريزينو البائس. «وفي نهاية أيام السلالة الثانية عشرة صارت حالة الحرب ضد آمو ومنطقة الريزينو موضوعاً من مواضيع الفن الرسمي. وفي العام ٤٥ من حكم أمنمهت الثالث (حوالي ١٨٠٤) كان زعيم مصري ما يزال يقدم لملكه جزية الحرب التي يدفعها المنتيو، لدى عودته من الأودية الغريبة والبلدان المنعزلة والتي كانت حتى ذلك التاريخ مجهولة. لكن الأمور ما لبثت أن تفاقمت تحت حكم السلالة الثالثة عشرة»[٢٠].

٤ ـ أوج مصر تحت حكم السلالة الثانية عشرة. أسطورة سيزوستريس

بلغت الحضارة المصرية القديمة ذروتها في ظل الحكومة النشطة والحكيمة والعادلة لفراعنة السلالة الثانية عشرة. إن نِعَم السلام والادارة الحازمة والواعية والتحرر الفكري والفردي التي ولدتها الثورة الاجتماعية والدينية انعكست نتائجها بظهور حياة فكرية قوية وأدب فلسفي وتاريخي غزير وتطور كبير للفنون.

«لذا ليس علينا أن نعجب كيف أن الأدب الشعبي صاغ من ذكريات هذا العهد التقليدي في ازدهاره، الصورة الأسطورية لفرعون مجيد ظافر وإداري عظيم تعزى إليه فضلاً عن ذلك مآتي ملوك كبار آخرين من عصور متتالية. وهذا البطل الذي اكتسب شهرة في مصر تضارع شهرة الاسكندر في العالم الشرقي هو سيزوستريس الذي ذكره هيرودوت (سنوسرت الأول أو الثالث)... وكان فرعوناً نموذجياً من السلالة الثانية عشرة»[٢١].

«في هذا الشعب الذي ظل يعامل حتى ذلك الوقت ببساطة استبدادية، بدأ وعي الأمور العامة يستيقظ وكذلك الشعور بالمصالح المشتركة وضمير الواجب والحقوق والفرد. إن الفرعون يعطي الاندفاع نحو المثل الأعلى. لقد كان إعلان الحقوق وتطبيق العدالة وأن يعيش المرء حياته بكفاءة فيصبح نظير الاله راع في السماء والد ماعات إلهة الحقيقة والعدالة ـ ذلك كان المنهاج الذي نشط إلى تحقيقه ملوك السلالة الثانية عشرة المشترعون. وحوالي ذلك التاريخ في بابل كان حمورابي يصدر «شرعته» الشهيرة التي قال إنه تسلمها من الاله ـ الشمس، شمش. وفي مصر أيضاً كان راع ـ الشمس يوحي إلى الملوك العدالة الأبدية كي يعلموها لشعوبهم. وهكذا ولد نظام يحرم الاستبداد الملكي

20 Moret, *Histoire de lOrient*, I, p. 464.

21 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 454.

والعنف الشعبي، فخدمة الدولة صارت أمراً واجباً على الجميع ووضعت قيد التطبيق من قبل الملك نفسه»[22].

تلك هي ملخصة في خطوطها الكبرى المنجزات الباهرة الداخلية والخارجية للسلالة الثانية عشرة. ويمكننا القول إن هذين القرنين من الحكم كانا بالنسبة إلى وادي النيل فترة إشعاع وتألق. وإن مصر فضلاً عن بابل المعاصرة لها لم ولن تعرف أبداً أوجاً كأوجها ذاك.

ولسوء الحظ، لم تكن هذه الفترة من السلام والازدهار سوى سلام موقت سرعان ما تلته كارثة عنيفة. وإن الفيضان سيعقبه الشح التقليدي. فحكم أمنمهت الثالث الطويل (١٨٤٩ - ١٨٠١) وعلى غرار حكم بيبي الثاني الغابر (٢٤٨٥ - ٢٣٩٠) سيعقبه كما سنرى قرن كامل تقريباً من الفوضى ينتهي حوالي العام ١٧٠٠ بكارثة قومية جديدة: الغزو الآسيوي وسيطرة الهكسوس الغرباء.

ومن جهة أخرى وبعد العام ١٨٠٠ سيكون مصير مصر كمصير الشرق المتوسطي كله مرتبطاً بمصير الشرق الأدنى الشمالي أو الآسيوي (آسيا الصغرى، أرمينيا، إيران). فسدود الشمال المفتوحة منذ ما قبل العام ٢٠٠٠ ستأخذ، واعتباراً من هذا العهد بإغراق العالم الشرقي بموجاتها البشرية شبه الدورية.

22 Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 267.